

الجناس التام في القرآن

للأستاذ محمد أحمد النمراوى

ذكر صاحب الإنفان وتابعه صاحب الوسيلة الأدبية أن ليس في القرآن الكريم من الجناس التام إلا مثالان: قوله تعالى من سورة الروم (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) ومن سورة النور (يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار ، إن في ذلك لعبرة لأول الأبصار)

وقولهم هذا إن صدق ليس في ذاته بذى خطر ، فليس

أما سيرتها في بيتها ، سيرة البنت البارة ، والطالبة الجادة ، والمهلة التي تعرف حق نفسها وحق أهلها وحق ربها ، تترك لله كل ما لا يرضى به الله ، لا رغبة عنه في الظاهر مع رغبة فيه في الباطن ، بل عن إيمان وبقين ، وتصديق لقول الرسول : من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه

تركت القصص الفاسجة ، والأفلام الداعرة ، وكل ما تتسابق إليه من الالهو العتيات ، وما نطمع فيه من الترفاه البينات ، فموضها الله عن ذلك علما وفهما ، ومزلة تمنهاها كل بنت فلا تعمل إلها إلا القليلات ؛ وراحة في نفسها ، واطمئنانا في قلبها لا يتألمها بالمال بنات ملوك المال

هذه هي الآنة عطار التي تعلمت من سيرتها أنه لا يعلم البت إلا السالحات من البنات ، فإذا أردنا الإصلاح حقا فلنعد له مثل (الآنة عطار) التي أشبهها الطرف من سيرتها ، لتتخذها طالبات الجاهات قدوة لهن ومثالا ، ولترداد هي صلاحا بذلك وكالا

على الططاري

يهم أن يكون في القرآن جناس تام أو لا يكون ، فسا الجناس التام إلا نوع ضئيل من الجناس ، وما الجناس إلا نوع واحد من المحاسن البديمية ، وما هذه إلا باب من الأبواب التي تتحقق بها موسيقى التعبير في فصيح الكلام ، وهي الموسيقى التي بلغت كمالها وتماها في القرآن. لكن القضية من حيث هي جدرة بالمحيص لاتصالها بالقرآن الكريم من ناحية ، ولبعد فيها من ناحية أخرى فن البصير ألا يحوى القرآن على سمته إلا مثالين اثنين من الجناس التام

إن المحاسن اللفظية وجدت في فصيح كلام العرب وفي القرآن العزيز قبل أن تسمى بأسمائها في علم البيان أو البديع . فالعلم يستقرى الوجود ويصفه ويضع لأسمائه الأسماء . وما أظن المعلمين أحاطا بكل الوجود من أصناف تلك المحاسن . وموضع اللطف في الجناس التام إذا لم يقصد التكلف أنه بلغت الذهن إلى معنيين مختلفين بلفظ واحد. يذكر بمعنى ويتكرر بمعنى . فهو من حيث المعنى كلمتان مختلفتان ، ومن حيث المنطق كلمة واحدة . ومن الواضح أن السام العفو منه لا يكون في الغالب إلا في المشترك من الألفاظ

وليس لما اشترطه بعضهم في الجناس التام من ألا يكون أحد المعنيين مجازيا محل ولا حكمة ما دام موضع الحسن هو اتفاق اللفظ مع اختلاف المعنى ؛ فاللغة الذهنية هي سواء أكان المعنيان حقيقيين كلاهما ، أم كان أحدهما حقيقيا والآخر مجازيا

ولعل هذا الشرط الذي اشترطوه هو الذي ضيق عليهم الواسع من أمثلة الجناس التام في القرآن . وحتى مع هذا الشرط فإن في القرآن الكريم من الجناس التام أمثلة فوق الذي ذكروا لا بدري كيف خفي عليهم مكاسها وهم من هم في الدقة والتتقيب ونعم العناية بالقرآن وهم يقسمون الجناس التام قسمين ، فإكان بين لفظين

عيسى يوم القيامة تبرؤا من أن يكون دعا الناس إلى عبادة نفسه وعبادة أمه من سورة المائدة (إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) فإن « نفس » هنا في تكرارها ذات معنى يختلف في الومضين اختلافا كليسا حسب نسبتها إلى عيسى أو نسبتها إلى الله سبحانه . وإن جاز أن يكون اختلاف الضمير المتصل نغرجا لهذا التل عن تمام الجناس في منطق الاعمطين وإذا عدنا إلى الأمثلة السألونة وجدنا مثالا آخر في أول سورة الرحمن في قوله تعالى : (والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تظنوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

وعجيب أن يكون مثل الرغشرى وقدهم لفظ الميزان بمعنى واحد في المواطن الثلاثة وإن توسع فيه فجمله يشمل كل معيار في الكيل والوزن وغيرها . ولكن القاموس يذكر من معاني الميزان العدل . وإلى هذا ذهب عدد من المفسرين في الوطن الأول ففسروا « ووضع الميزان » بمعنى « وشرع العدل » كما في روح المعاني للألوسي والتفسير المحيط لأبي حيان . وهذا يحمل الآيات الكريمة من الأمثلة الفريدة لتمام الجناس حتى ولو أخذ معنى الميزان في الوطنين الآخرين : لكن الأقرب الأصوب أن يختلف معناه في الآيات الثلاث ، فيكون في الآية الأولى بمعنى الشرع الذي توزن به الأعمال والأحكام في الجماعات ، ويشهد لهذا آية سورة الحديد : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) إذ من الواضح أن الميزان هنا لا يمكن أن يكون الآلة المروفة بدليل « أنزلنا » ، ودليل المطف على الكتاب ، ودليل الإطلاق في قيام الناس بالقسط . هذا في الآية الأولى . أما في آية الرحمن الثانية فيكون الميزان على هذا مصدرا ميميا بمعنى الوزن أي التقدير والحكم . وفي القاموس من بين معاني الميزان أنه المقدار ، ومن بين معاني المقدار أنه القدر بمعنى القضاء والحكم . ويكون معنى

من نوع واحد كأن يكونا احمين أو فعلين ميموه متبايلا ، وإلا فهو مستوفى . ولكل أمثلة في القرآن الكريم فن أظهر أمثلة المستوفى مثلان : الأول في قوله تعالى لأسرى بدر من سورة الأنفال : (إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) فإن خيرا الأولى اسم ، وخيرا الثانية أفعل تفضيل . أما المثل الثاني ففي قوله تعالى من سورة المؤمنون بعد أن نفي أن يكون معه سبحانه إله غيره : (إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) فإن الجناس بين الفعل علا والحرف على تام ظاهر لا ينقص منه دخول لام التوكيد على الفعل قياسا على دخول فاء المطف وأداة التعمير على أحد ركني الجناسين دون الآخر في بعض الأمثلة المشهورة في علم البديع أما التماثل منه فأمثله في القرآن الكريم متعددة ، نذكر الآن منها عددا يرى القارى البصير فيها رأيه . وما نظنه يخالفنا فيها كلها إن خالفنا في بعضها . فن ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فإن رميت الأولى التفعيلة لا يمكن أن تكون بمعنى رميت الثانية المثبتة ، وإلا كان ذلك من التناقض المستحيل على القرآن . فلا بد أن تكون الأولى بمعنى أصبت وتكون الثانية على ظاهرها بمعنى رميت ، إشارة إلى قذف النبي صلى الله عليه وسلم الحمى أو التراب في وجوه الشركين في غزوة بدر وما كان من انهزامهم عقب ذلك . فالرمى بمعنى القذف هو من النبي ، والرمى بمعنى إصابة أعين الشركين حتى انهزموا هو من الله سبحانه . فاللفظ واحد والمعنى جد مختلف

وفي الحق أن هذا التال يفتح بابا واسما للجناس التام في القرآن هو باب الآيات التي ينسب فيها نفس الفعل أو الشيء إلى الخالق سبحانه وإلى المخلوق في وقت واحد ، إذ من الواضح أن المعنى لا يمكن أن يكون واحدا في الحالين وإن أخذ اللفظ ؛ كما في قوله تعالى حكاية لقول سيدنا

بمعنيين مختلفين قوله تعالى من سورة البقرة : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » فالأولى موصولة والثانية شرطية . وقد رأينا في هذه الأمثلة الشرطين اللذين اشترطنا وتجنبنا ما لم يتوفر فيه شرط الانفعال ولو في الظاهر كما في قوله تعالى من سورة البقرة : (فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون) ففيه اتصلت بالمصدرية بالكاف . وكما في قوله تعالى من سورة الكهف (فن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أو قوله تعالى : ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها) فقد اتصلت من الاستفهامية بإلغاء في الآية الأولى ، وأدغمت من في من الموصولة في الآيتين فكانتا كالسكلمة الواحدة في الطلق وفي الرسم . وإلا فهذا النوع في القرآن الكريم كثير

على أننا إذا جملنا اختلاف المعنى للسكلمة المتكررة هو العمدة والفصل في الجنس التام افتتح لنا منه باب آخر هو باب السكلمة يختلف معناها لا باختلاف نوعها كما في الأمثلة السابقة ولكن باختلاف مرجعها والمراد منها وإن ظلت السكلمة هي هي في حقيقتها . خذ مثلا إليك قوله تعالى « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » في موضعها من سورة الرحمن . إذ المعنى في الإحسانين ليس بواحد ، فإن الإحسان الأول هو من العبد في العمل ، والإحسان الثاني هو من الله في الجزاء . فالأول بمعنى الإتيان والإخلاص لله في العمل ، والثاني بمعنى الإكرام وإجزال الثواب للعبد . فهو في صحيحه مثل فريد من أمثلة الجنس التام إذا أخذنا في هذا بمقوماته وروح الحسن فيه

ومثل هذا قوله تعالى من سورة براءة : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ، قل أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) فإن « أذن » الأولى غير « أذن » الثانية في الدلالة وفي المعنى الذي تفيد أنه في موضعها من الآية . الأولى للذم أراداه المنافقون والثانية للمدح أراداه الحق سبحانه وأظهره بإضافتها إلى خير . كذلك يؤمن

الآية الكريمة على هذا « ألا تطفؤا في القضاء والحكم » أما الميزان في الآية الثالثة فبالمعنى المعروف . واللهى عن إحصار الميزان نهى عن الطرفين فيه ؛ لأن التعامل بليزان عملية ذات طرفين إذا جوب القسط فيها كان ذلك ظفينا أو إحصارا حسب الطرف المنظور إليه

هذا هو الوجه في فهم تلك الآيات الكريمة وتفسيرها تفسيراً يتفق مع الأحكام الذي وصف الله به آيات كتابه العزيز في أول سورة هود

وهناك باب واسع من أبواب الجنس التام في القرآن لم ينتبه إليه ، ألا وهو الجنس بين الحروف والأسماء المبنية فإن الحرف أو الاسم المبنى قد يتعدد معناه في العربية ، فإذا ورد في آية بأكثر من معنى كان ذلك من تعلم الجنس . إلا إنه لقصر هذا النوع من السكلمات وقلة حروفه يشترط لنحقق الحسن البديعى شروط . بشرط مثلا الانفعال فلا تكون اللام في الآية الكريمة من سورة الحجر : (قال لم أكن لأسجد لبشر) مثلا للجناس التام . وبشرط فيه التقارب فلا تكون ما الشرطية وما النافية في الآية الكريمة (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ، وما للظالمين من أنصار) مثلا ظاهرا ، لطول الفاصل بينهما . فإذا ما تحريتا هذين الشرطين وجدنا من هذا النوع أمثلة غير قليلة . فما يتعلق بما من ذلك قوله تعالى :

« قلتم ما ندرى ما الساعة » : سورة الجاثية
« ما قلت لهم إلا ما أمرني به » : سورة المائدة
« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله »

سورة هود

فإذا ضمنا إلى الشرط الأول من هذا المثل ما سبقه في نفس الآية وجدنا مثلا لطيفا لووود « ما » ثلاث مرات بثلاثة معان مختلفة : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت)

ومن الأمثلة التي تم الجنس فيها بورود « من »